الشكوى فى شعر أسامة ابن منقذ	دكتور محمد ربيع عميد كلية الآداب . جامعة مؤتة

فى هذا البحث ، محاولة للكشف عن جانب مهم من جوانب شعر أسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ) ، وهو موضوع الشكوى ، الذى يشكل فى شعر هذا الشاعر ظاهرة متميزة ، تكاد تتفوق على كل موضوعاته الشعرية ، بل هى تتوزع على معظمها ، حتى تكاد تستحوذ عليها .

وعلى الرغم من وفرة الدراسات التى تناولت شعر أسامة بن منقذ ، إلا أن أكثرها لم يقف عند ظاهرة الشكوى ، الوقفة المطلوبة ، فقد مسها بعضهم مساً خفيفاً ، دون أن يقف عند جوانبها الإبداعية المختلفة ، فيعلل أسبابها ، ويحلل أبعادها الفنية والمعنوية بما تستحق .

ومن هنا نزعم أن الدارسين لشعر أسامة ، قد قصروا فى رصد جانب مهم من جوانبه الإبداعية دون ما مسوغ ، حتى أن بعضهم لم يدرج موضوع الشكوى ضمن موضوعاته الأخرى ، فكأنه عده ملحقاً بها ، ممزوجاً بموضوع العتاب أو ملحقاً بموضوع الوصف ، أو غير ذلك ، وهو ما حملنا على دراسة هذا الجانب ، لما يحمل من صدق وعفوية وواقعية ، فضلاً عما يحمل من دلالات إنسانية عميقة ، وتجارب صادقة خصبة ، وما يترشح عن ذلك كله من عطاء فنى متميز .

وربما تكون حياة الشاعر المتقبلة ، وراء هذا كله ، فقد كانت حافلة بالأحداث ، مليئة بالمفارقات . فضلاً عن عمر طويل ، أشرف على المئة عام قضاه الشاعر فى خوض غمار الحروب حيناً ، وفى التمتع بمباهج الحياة حيناً آخر ، ترتفع حاله تارة ، وتنخفض تارة أخرى ، فما يكاد

يستقر على حال ، حتى تهب عليه رياح التغيير ، فتعصف به حيناً ، وتهدأ حيناً آخر ، وما يكاد يستقر فى بلد حتى يخـــرج منـــه ، يحمـــل أثقالـــه ومشاكله.

وقلما تعرض شاعر من شعراء العربية لتقلبات الظروف والأحوال ، مثلما تعرض لذلك أسامة بن منقذ ، وكان حصيلة ذلـــك ، الكثـــير مـــن المتاعب والإخفاق ، والشعور باليأس والإحباط ، سواء فى موقفـــه مـــن الحياة والناس ، أو الأهل والأقارب ، وهو ما أفصح عنه فى معظم شـــعر الشكوى كما سنرى .

وقد اعتمد الباحث على استنطاق النـــص فيمـــا تحملـــه معانيـــه ، ومناقشة أفكاره ، فضلا عن الكشف عن جوانـــب شـــكله بغـــة وأســـلوباً وتصويراً ، وما يترشح عن ذلك من صدق العواطف ، وعمق المشاعر ، ودقة الأحاسيس .

وإذ يأخذ الباحث بهذا المنهج فإنـــه لا يغفـــل الاســـتعانة بـــالمنهج التاريخى ، لأن شعر الشكوى على الخصوص هـــو حصيلـــة الظـــروف والأحوال التى عصفت بالشعر ، كما أنه خلاصة لصلاته بالناس والمجتمع أهلاً وأقارب ، وأصدقاء وحكاماً ومحكومين .

ونكاد نجزم بأن صلات الشاعر بأصناف الناس ، قد نتـــج عنهـــا الكثير من المنغصات ، كما أن الحياة قد أثقلت كاهله بما فيها من مشـــاكل ومتاعب .

ومن هنا يجد الباحث أن من الصعب تعليل النص وتحليل مضمونه ، دون الاستعانة بما يكمن وراء هذه الأحداث التى واجهت الشاعر وجعلته

صيداً للقلق والمتاعب انتهت به فى كثير من الأحيان إلى الإحساس باليأس والإحباط ، وهذا هو بالضبط ما يجعلنا نستفيد من المنهج التاريخى . نستعين به على تعليل ما ينغلق علينا من الأفكار ، ويستعصى علينا من النوافذ المغلقة فى النص .

مدخل تاريخى :

لا يهدف الباحث فى هذا المدخل إلى الكلام على الحياة المنفصلة ، بل يسعى إلى التعرف على العوامل التى دفعته إلى الشكوى ، وهى عوامل كثيرة ، بعضها يتصل بالحياة والظروف التى لم تدع الشاعر يتمتع بما فيها أميراً وشاعراً ، كما يتصور البعض ، بل هى سببت له الهموم والأوجاع والإحساس بالخيبة والمرارة . وبعضها الآخر جاء حصيلة لعلاقاته بالناس على اختلاف طبائعهم وأخلاقهم ، وقلما وفق الشاعر فى صلاته مع الناس ، حتى أقرب الناس إليه ، من العائلة والأقارب ، وكان ذلك يحز فى نفسه حز السكاكين -إن صح التعبير- .

ولد أسامة بن منقذ فى عصر الحروب الصليبية التى اشتعل أوارها بين المسلمين والصليبيين (أكثر من قرنين من الزمان ، شارك أسامة فى قسم كبير منها ، وخاصة فى الدفاع عن شيزر ضد هجمات الصليبيين ، وفى الحروب التى خاضها عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين ، وكان فيها كلها ، الفارس المجلى والجندى الأمين)[١] .

وقد ولد الشاعر سنة ٤٨٨هـ فى بلدة شيزر ، وهى (بلدة ذات قلعة حصينة ، تقع على نهر العاصى غرب حماة)[٢] .

وشيزر (قلعة حصينة قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم ، وفي وسطها نهر العاصي ، عليه قنطرة في وسط المدينة)[٣] .

وقد حكم شيزر (أمراء بني منقذ ، الكنانيون ، وكانوا من أهل المجد والحسب ، والفضل والأدب ، والحماسة والسماحة ، والحصافة والفصاحة ، والفروسية والفراسة ، والإمارة والرياسة)[٤].

وأول من حكم حصن شيزر من أمراء بني منقذ ؛ هو الأمير عز الدين سديد الملك جد أسامة ، وتوالى على حكمها ، أمراء بني منقذ في الفترة ما بين ٤٧٤هـ-٥٥٢هـ وهي السنة التي ضربت فيها بزلزال مدمر أتى على معظم سكانها ، ولم ينج منهم إلا من كان خارج القلعة ، كأسامة وابنه مرهف (وبذلك تكون مدة إمارتهم عليها سبعاً وأربعين سنة ميلادية)[٥].

إن إطلالة سريعة على حياة الشاعر يمكن أن تساعدنا على فهم ظاهرة الشكوى في شعره ، وتفصح عن الأسباب الكامنة وراء هذه الشكوى .

وأول ما يجابهنا من هذه الأسباب ، مكانه في أسرته ، فلقد نشأ أسامة (في كنف والده وعمه سلطان الذي كان يحكم شيزر بعد أن تنازل له أخوه -والد أسامة- عن الحكم ، فاستخلص سلطان أسامة من بين الإخوة الأربعة ، وعطف عليه ورعاه ودربه على الفنون الحربية ، وكان يختبر حضور ذهنه في ساعة القتال ، وأنشأه كمن يريد أن يجعل منه خلفا له ، ولم يكن له ولد ذكر في ذلك الحين)[٦] . أما بعد أن رزق العم ولدا ، فتغيرت معاملته لابن أخيه ، وأخذ الحسد يعمل فيه ، وكان ولده صغيراً ،

ممـا جعل أسامة يغادر شيزر مؤقتاً عام ٥٢٣هـ ، ويعود إليها بعد بضع سنيـن عام ٥٣٢هـ ، وكانت الإمارة لا تزال لعمه فنفـاه إلـى دمشـق وسكن الغوطة ، وكان ذلك بعد موت أبيه ، ونال حظـوة عنـد الأتـابك شهاب الدين محمود[٧].

ويبدو أن الكثير من المواهب التى كان أسامة يتمتـع بهـا ، قـد أوغرت صدر عمه عليه وخصوصا بعد أن رزق بولد فكما (نبغ اسـامة فى الفروسية ، تبغ فى قول الشعر وفى دروسه فى النحو والأدب والحديث التى تلقاها على أكبر شيوخ عصره)[٨] وأكثر ما أثار حفيظة عمه عليه ، ضروب الشجاعة التى تمتع بها أسامة فى أول شبابه ، حين كان فى كنف عمه حاكم شيزر . وتقول بعض الأخبار ، أن جدته لأبيه كانت تحذره من إظهرا شجاعته وقوته التى أصبحت تثير مخاوف عمه وهواجسه فتقول له (لا والله ما يقربك هذا منه ، وإنه يزيدك منه بعداً ، ويزيده منك وحشـة ونفوراً)[٩] . (ويبدو أن الوشاة قد قاموا بدورهم فى تجسيم هذه الهواجـس لدى الأمير سلطان ، ومن المؤكد أن التوتر الذى جرى بين مرشـد والـد أسامة وبين أخيه سلطان كان بسبب أسامة)[١٠].

ويبدو أيضاً أن شدة اعتزاز أسامة بنفسه (وازوراره عـن طلـب الصفح من عمه ، أتاح للوشاة ما أرادوا . كما أن علاقة الأسرة جميعا قد سادها التوتر بسبب ذلك ، حتى أحس أسامة أنه غير مرغوب فيـه مـن جميع أهله . ويضم ديوانه عدة قصائد يستميل بها قلب والده الـذى كـان محيراً بين ابنه وأخيه)[١١] . ويصور أسامة هذا فى إحدى قصائده التـى خاطب بها والده قائلاً :

قد أفسدوا عيشى علي وعبشهم فأنا الشقى بهم وبى أيضا شقوا[١٢]

وليس هذا فحسب ، فلقد آلم الشاعر أن (الوشاة قد أوغروا صدر أبيه عليه فاضطر إلى أن يرسل إلى أبيه استعطافاً يزيل به من نفسه أثر هذه الوقيعة)[١٣] فكتب إليه قصائد عدة يستعطفه عليه .

نتيجة لما حدث بين أسامة وبين أهله وأقربائه اضطر إلى مفارقة وطنه الأول شيزر ، متحملاً ألم الغربة المفروضة عليه ، إذ ابتعد عن الأهل والإخوة والوطن قاصداً الموصل التى كان يحكمها الأتابكيون ، ثم عاد منها إلى شيزر ليلتقى بعمه الأمير عز الدين سلطان الذى ما لبث أن نفاه منها ، فتوجه إلى دمشق ولبث فيها (ثمانى سنوات فى رعاية صديقه وظهيره الأمير معين الدين أنزر وزير شهاب الدين محمود)[١٤].

ويبدو لنا أن القلق استبد بأسامة فى دمشق التى تعرض فيها للعديد من المكائد ، حتى غادرها إلى مصر عام (٥٣٨هـ) حيث الخليفة الفاطمى عبدالمجيد بن المنتصر بالله ، غير أن ما لقيه فى دمشق من تجهم الحياة فى وجهه ، قد تكرر فى مصر أيضاً ، ودعاه ذلك إلى العودة إلى دمشق سنة (٥٤٩هـ) ، وكانت الشام قد صارت إلى الملك نور الدين ، لكن هذه العودة لم تخل من منغصات أقضت مضجع أسامة ، فبعد سنة تقريباً حدث زلزال مروع فى شيزر ، دمر كل ما فيها وقضى على من فيها وفى مقدمتهم عائلة أسامة)[١٥].

والواقع أن كثرة الترحال لدى أسامة كانت مسكونة بالهموم والمشاكل وضياع أحلام الشاعر وأمواله التى تبددت أكثر من مرة أثناء

تنقله من بلد إلى آخر ، وانعكس ذلك شكوى مريرة لضعف حاله وضياع آماله وأمواله .

وفى تصوير ذلك ، راح ينعى على الدهر قسوته ، وعلى الزمـــن تسلطه ، وعلى ما فى الحياة من منغصات ، وما فى الغربة مـــن وحشـــة وانفراد ، وما ينجم عنها من حنين إلى الأهل والأحبة والوطن .

وأسامة ظل مسكوناً بحب الأهل والأقرباء ، شكا وبكى البعد عنهم، وتمنى أن يعود إلى الوطن للعيش فى أمان واستقرار ، وأكثر من البكـــاء عليهم ، والأسف على فراقهم ، خصوصاً حين مضى الزلزال بهـــم فـــى شيزر.

شعر الشكوى :

يتصدر شعر الشكوى موضوعات أسامة الشعرية ، على الرغم من أن معظم هذا الشعر يتوزع على موضوعاته الأخرى ، وقلما ينفرد دونها بقصائد خاصة ، فهو يختلط بشعر العتاب والوصف والغـــزل والرثـــاء ، وينبثق من قصائد الحرب والفخر والحنين إلى الوطن والأهل والأقـــارب والأصدقاء .

وشعر الشكوى يعد أكثر تجسيداً لعواطـــف أســـامة ، وأحاسيســـه وأصدق وصفاً لمواقفه من أهله وأقاربه ، وحبـــه لمدينـــة شـــيزر علـــى الخصوص ، بل هو تأكيد لصدق انتمائه لمبادئه التى طالما صرح بها فى كل مواقفه .

ويرى أحد الدارسين أن شعر الشكوى عند أسامة (صار فناً قائماً بنفسه فى ديونه ، يفوق سائر الفنون فى مقدار القول فيه ، كما تميز عنده بالصدق ، فجاء مؤثراً لأنه نابع من معاناة حقيقية فرضتها عليه ظروف حياته المتقلبة)[١٦] ولقد سبق أن قررنا بأن أسامة شكا فى شعره من أشياء كثيرة ؛ شكا من فراق الوطن والبعد عن الأهل والأقارب ، وشكا من مواقف الأصدقاء ومن الوحدة والاغتراب ، ومن توالى الهموم وكثرة الأحزان ، ومن الفقر وفقدان الأموال ومن متاعب الكبر وهموم الشيخوخة ، ومن الظلم وشماتة الأعداء ، ومن تقلبات الدهر وقسوة الزمن والحياة ، ومن الحوادث والزلازل .

الشكوى من الفراق عن الوطن والأهل والأقارب :

يتصدر فراق الوطن والأهل والأقارب ، موضوع الشكوى فى شعر أسامة بن منقذ ، بل هو يحصد أغلب معانيه ، وما ينبثق عنه من مشاعر صادقة وأحاسيس دافقة وعواطف مشحونة بالدلالات الإنسانية .

وصورة الفراق فى شعر أسامة ، تتألف من مجموعة الروافد التى يتم تشكيلها عبر وحدة موضوعية تتألف من الوطن والأهل والأقارب ، بحيث لا يمكن الفصل بين رافد وآخر فى ظل هذه الوحدة ، فمن الصعب أن نبحث فراق الوطن بعيداً عن فراق الأهل والأقارب ، ويكاد يستحيل أن نعثر فى شعر اسامة عن شكواه من عمه الأمير سلطان ، دون أن نجد ذكراً لأبيه أو أخيه ، وقلما تجد الشاعر يشكو ألم البعد عن الوطن إلا ويقترن بتصوير الإحساس عن مفارقة الأهل والأقارب والأحبة.

وهو ما حدا بنا إلى دراسة شكوى الشاعر من الفراق فى ظل هـذه الأطراف الثلاثة .

وتفرض مدينة شيزر -موطن ولادته ونشـأته- سـيطرتها علـى تجربة الفراق والغربة فى شعر أسامة ، ذلك أنه فارقها مضطـراً ، بعـد حصول الجفوة بينه وبين عمه . ولم يجد أقرب من أبيه يبثه ما يعتلج بـه صدره بسبب هذا الفراق .

وقد عبر عن ذلك بتصوير ضيق نفسه وعمق همه ، وشكا إليه ما كدر صفو عيشه من حقد وغدر وعقوق فقال[١٧] :

أشكو إلى عليك هماً ضاق عن كتمانه صدرى وما هـو ضيـق

وطوارقاً للهم أقربها الكـرى وتلظ بى صبحـاً فمـا تفـرق

وتكرار لفظ (الهم) فى البيت الثانى ، يفصح عن عمـق الـدلالات النفسية التى انتابت الشاعر ، بفعل (غيظ) من أساءوا إليه مـن الأقـارب خاصة . وقد عبر عن هذا الموقف النفسى بأبيات أخرى مـن القصيـدة نفسها فقال :

تغلي عليّ صدورهم من غيظهم فتكاد مـن غيـظ علـيّ تحـرق

وفى هذا البيت سيطرة واضحة لوصف يعتمل فى نفوس الحـاقدين عليه ، وذلك بقوله : (تغلى صدورهم) كذلك بتكراره لفظة (الغيظ) لينـت انتباه القارئ إلى حقدهم الشديد عليه ، وهو حقد كما يصـوره ، يلتهـب احتراقاً من كثرته وشدته فتكرار (الضيق) وتكرار الغيظ لهما دلالاتهمـا

النفسية إذ المعروف (أن التكرار هو تأكيد الشاعر على المناطق الحساسة فى النص)[١٨] .

ويواصل الشاعر بثه شكواه إلى أبيه ، ليسوغ له ما أقدم عليه من تركه لوطنه فيقول فى وصف مواقف أقاربه[١٩] :

قد أفسدوا عيشى علي وعيشهم فأنا الشقي وبـي أيضا شـقوا

فضل الأقارب برهم وحنوهم فـإذا جفونـي فالأبـاعد أرفـق

فى الأبيات السابقة يفصح الشاعر عن نمط العلاقة بينه وبين قسم من أقاربه ، وربما كان عمه فى مقدمة هؤلاء وهى علاقة يشوبها الحقد ، ويدفع إليها الحسد والكراهية وتنم عن مواقف هؤلاء الذين دفعوه إلى ترك وطنه واحتمال الغربة والفراق على الرغم منه ، دونما مسوغ أخلاقـي ، سوى ما وجدوه فيه من همة وشجاعة وطموح ، ومواقف رجولية ، تحول بينهم وبين ما يسعون إليه .

وفيا الأبيات أيضا تتجسد شكوى أسامة بالإحساس بالألم والشعور بالإحباط الذى انتهت إليه نفسه (فأنا الشقي) ، كذلك فيمـا وصلـت إليـه العلاقة بينه وبين نفر من أقاربه (فإذا يجفوني فالأبـاعد أرفـق) وهـو إحساس عميق بالألم الذى كان ينتابه ونظرة سريعة إلى المفردات التى تم بها نسج عباراته ورسم صوره ، تؤكد موقفه النفسى ، وتجسد رأيه فيمن أساءوا إليه وأرغموه على ترك وطنه وبلده.

والواقع أن أسامة لم يخرج من شيزر إلا مكرهاً بسبب المضايقات التى تعرض لها من بعض أقاربه ، وخصوصاً عمه حاكم شيزر ولذلـك جأر بالشكوى ليسوغ بها خروجه من بلدته.

ويؤكد ما نذهب إليه ، قصيدته التى كتبها حين غادر شيزر (إلى الموصل وفى نفسه ألم من تغير أهله ، وقسوتهم عليه ، مما خلف فى نفسه إحساساً عميقاً بالحسرة واليأس من جدوى عتابهم أو الشكوى منهم فيزفر أبياته المؤثرة)[٢٠] فيقول[٢١] :

وما أشكو تلون أهل ودى ... ولو أجدت شكيتهم شكوت

مللت عتابهم ويئست منهم ... فما أرجوهم فيمن رجوت

إذا أدمت قوارصهم فؤادى ... كظمت على أذاهم وانطويت

ورحت عليهم طلق المحيا ... كأنى ما سمعت ولا رأيت

تجنوا لى ذنوبا ما جنتها ... يداي ولا أمرت ولا نهيت

ولا والله ما أضمرت غدرا ... كما قد أظهروه ولا نويت

ونسيج هذه الأبيات يتم عبر ألفاظ تعكس دلالات نفسية ، تصور إحساسه وتعبر عن مواقفه من مثل (مللت ويئست وكظمت وانطويت ورجوت وغيرها) كما تعكس دلالات أخلاقية تصور خصومة الحاقدين مثل (أدمت وأذاهم وغدراً وتجنوا وغيرها) والفرق بين الدلالتين يعكس المفارقة بين نمطين من المواقف والأخلاق كما يحدد ويوضح نوع العلاقة والجفوة التى حصلت بينه وبينهم.

وذلك كله دفع به إلى مغادرة بلده والاغتراب عن أهله ولكنه لا يلبث أن يحس بالشوق الجارف إلى أهله ووطنه ، فيكتب إلى أبه من العراق[٢٢]

ايها كلانا يشتكي حر الم سوى ... لكن جهلت تباين العشاق

أنت استضأت بنـــاره متبصـــراً وأنـــا صليـــت بجمـــره المحـــراق

والبيتان لا ينمان عن شوق وحسب ، بل يعكسان موقفاً نفسياً يعبر عنه بقوله (وأنا صليت بجمره المحراق) إذ الشعور بالغربة يثير إحساســاً شديداً بالحرقة ويصور شعوراً صادقاً بعمق الحب والوفاء لأبيـــه وأهلـــه وبيته شيزر .

ذلك أن الشاعر ، ورغم ما كابده من قسوة بعض أقاربه فى شيزر، ظل مشدوداً إلى جذره ، مخلصاً إلى انتمائه ، وفياً لأهله وعشيرته ، محباً لمن أحسن أو حتى أساء إليه ، وهو ما يعكس صفاء قلبه ، ونقاء جوهره وطيب نفسه ، لذلك بادر إلى الإعراب عن إحساســـه الصـــادق بـــالحب والانتماء ، وشدة الوفاء لمن أرغموه على ترك شيزر ، فما كـــاد يســـمع بكارثة الزلزال الذى ذهب بمدينة شيزر وبأهلها ، حتى كشف عن صـــدق الانتماء إلى الأهل والأقارب والواطن (فراح يبكيهم بكاءً حاراً ، وينـــدب حظهم ، ويرثى منازلهم ، ويسأل الزمن عن ماضى مجدهم ، ويتألم لبقائه من بعدهم ، ويمدح ما اتصفوا به من سامى الخلال وطيب الفعال ، وبرغم ما كان بينه وبينهم من إحن وبغضاء ، عز عليه فقدهـــم وتمنـــى أن لـــو استمرت حياتهم ، واستمر ما بينه وبينهم من حب وود ووفاء ، فقد كانوا رغم كل شئ مصدر فخاره وينبوع قوته واعتزازه)[٢٣] يقول :

ما استدرج الموت قلبى فى هلاكهم ولا تخرمهـــم مثنـــى ووحدانـــــا

فكنت أصبر عنهم صبر محتســـب وأجمل الخطب فيهم عـــز أو هانـــا

ويقول :

وما درى أن فى قلبـــى لفقدهـــم نار تلظى وفـــى الأجفـــان طوفانـــا

بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم　　وإن أروني منادة وشنآنا

كانوا سيوفي إذا نازلت حادثة　　وجنتي حين ألقى الخطب عريانا

ويلحظ فى هذا النص -كما فعل فى نصوص سابقة- أن أسامة يصور المفارقة الواضحة بينه وبين خصومه ، ليدل بها على أخلاقه ومواقفه ويرسم صورة لرجولته وتحمله وصبره على الكثيرين ممن أساءوا إليه . فضلاً عما قصده من تبرئة نفسه أمام أبيه الذى سمع شيئاً مما وشى به الوشاة ، ولذلك أسرع أسامة إلى تبرئة نفسه أما أبيه.

وفى هذه الأبيات تجسيد لحبه لأهله الذين صبر على ظلمهم ، وتحمل أذاهم ومواقفهم ، ولا شك أن المعانى التى أضفاها الشاعر على نفسه تعكس مفهوما للمواقف الرجولية التى ينبغى أن تتوافر لدى الشعراء الفرسان وأسامة يحمل فى نفسه الكثير من هذه السمات.

وفى هذا النص لا يصور أسامة حزنه وألمه بسبب الفراق وحسب، بل يسعى إلى تجسيد ما تتوافر عليه شخصيته ونفسيته من سمات عالية تستكمل بها شخصية الشاعر الفارس كما يعكس النص الخلاف الشديد بينه وبين خصومه من الأقارب وغير الأقارب الذين يكيدون له ويتربصون به، ومثل هذا الشعر يكثر فى شعر أسامة ، ويشكل شاهداً على حكم لا يخلو من الصراع على السلطة ، كما لا يخلو من الاضطرابات السياسية.

وفى أبيات أخرى ، تجتمع كل العناصر التى تلقى روافدها فى تجربة الفراق من أهل ووطن وأحباب وإخوان وأتراب ، لتمثل وحدة فنية فى تجربة الشكوى لدى أسامة حتى لتبدو لحمة قوية فى تصوير أبعادها الغنية بالدلالات الإنسانية يقول الشاعر(٢٤) :

أشتاق أهلى وأوطانى وقد ملكت دونى وأفنى الردى أهلى وأحبـــابى

فأستريح إلى رؤيا القبـــور ففـــى أمثالهـــا حـــل إخوانـــى وأترابـــى

ولست أحيا حياة أســـــتلذ بهـــا من بعدهم ولحاق القـــوم أولى بـــى

إن عناصر هذه الصورة تتألف مـــن الوطـــن والأهـــل والأحبـــة والإخوان والأصدقاء فى حين يمثل الشاعر نفسه بعدا رئيسا من أبعادهـــا لأنه يحقق بعديها الإنسانى والاجتماعى ، فالشاعر هنا ، ورغم مـــا بينـــه وبين قومه من خلاف ، يكشف عن حبه لهم وإشفاقه عليهم لما أصـــابهم ، كما يتضح البعد الاجتماعى والأخلاقى فى هذه العواطـــف الحـــارة التـــى تجسد حزنه وألمه لما أصابهم.

كما يفصح أسامة عن تفضيله الموت على حياة تخلو من العيش فى ظل الوطن والأهل والأحبة والأتراب ، وهو يلمح فى هذا كله إلى مصير أهله الذين بادوا بفعل الزلزال الذى دمر قلعة شيزر فأتى على معظم مـــن كان فيها .

ويكرر أسامة هذا المعنى فى أكثر من موضع ، حتى ليبـــدو أنـــه مسكون به فى تجربة الشكوى ، ففى حديثه عن الديار يصـــور شـــعوره بالوحدة والانفراد فيما بقى له من الحياة بعد موت أهله وذويـــه وصحبـــه ودمار وطنه ، ويحمل ظروف الزمان ما حل بهم من نكبـــة ، ويصـــور إحساسه بالوحشة (فلا دار ولا سكن) وشعوره (بضياع الوطـــن وفقـــدان الأهل) ، كما يصور شعوره بالحزن العميق والألم الشديد لما حل به على يد الزمن الذى يحمله ما حل بالأهل والوطن فيقول[٢٥] :

إذا ذكر لديـــار بـــاد ســـاكنها ذو وحدة ساءه فـــي داره الزمـــن
بكيت أهلي وأوطاني وآســـفني أن ليس لي بعدهـــم دار ولا ســـكن
أخنى الزمان على أهلي وملك أو طاني سواي ، فلا أهل ولا وطـــن
ولم تدع لي المنيا مشـــتكى حـــزن أبثـــه كمـــدى إن عـــادني حـــزن

ولحظ فى هذا المص كما فى غيره من النصوص تأكيد أسامة على ديار (باد ساكنها) وبكاؤه على (الأهل والأوطان) وأسفه على ما حل بقومه بفعل الزلزال الذى دمر مدينة شيزر .

ويعكس هذا الموقف طبيعة البنية الاجتماعية التى يصورها أســـامة وبما يؤكد صدق الانتماء وعمق التجذر ، كما يكشف البعد الأخلاقى الذى يجسده موقفه من أهله وأقاربه وأصحابه ، والذين فقدهم (فـــلا أهـــل ولا وطن).

وهذا يعنى أن الشاعر أسامة لا ينفصل عـــن بيئتـــه الاجتماعيـــة ومواضعاتها الأخلاقية والسلوكية . كما يؤكد عمق الدلالات الإنسانية التى تنتظم تلك الأسرة رغم ما كان يشوبها من خلافات بين الحين والحين فى ظل الطبيعة البشرية .

وهذه المواقف التى صورها أسامة بشعره تعد شاهداً أمينـــاً علـــى عصره الذى تميز بظاهرة الجهاد ضد الحملات الصليبية التى كان أسامة وأهله يقودون جحافلها ويشكلون عنصراً مهما من عناصرها التى تصدت للصليبيين الغزاة وكان فى مقدمتهم نور الدين زنكى وعماد الدين زنكى.

ولا يترك أسامة سانحة تتيح له فرصة الشكو مما حل بشـــيزر إلا واستثمرها فى الإعراب عن حسرته وحزنه ، ففى معرض ذكر المنازل ، يرى أن نكبة آل منقذ ، هى عبرة وموعظة للناس لا ينبغـــى نســيانها ، ويتحدث عن القدر الذى داهمها فأباد أهلها ، وحول سموقها إلـــى (رســم داثر) ويبدى أسفه لما حل بشيزر ، ولا يخفى دمعه لذلك فيقول[٢٦] :

انظر منمـــازل آل منقـــذ إنهـــا عظـــة اللبيـــب وعـــبرة للنـــــاظر

إلى أن يقول :

فأصابها قدر فـــأهلك مـــن بهـــا وأعـــاد شـــامخها كرســـم داثـــــر

فإذا ذكرتهـــم عرتنـــى حســـرة تمـــرى ســـحائب دمعـــى المتبـــادر

وفى كتابه (المنازل والديار) نماذج فـــى هـــذا المعنـــى يصعـــب حصرها، وكلها يتدفق بمشاعر الحزن والأسى لمـــا حـــل بديـــار قومـــه وأهله[٢٧].

والذى يلفت الانتباه حقا هو أن الشاعر فى وصفه لدمـــار وطنـــه وهلاك أهله وصحبه ، يحمل الزمن والدهر والأيام والقدر مـــا آل إليـــه وضعها المؤسف .

وليست شيزر هى البلد الوحيد الذى أوفد شكوى الشاعر ، فلقد كان لمدينة دمشق التى أحبها ، موقف مماثل لموقفه من وطنه الأول ، فارقهـــا غير راض باحتمال الهوان لأنه وجد فيها ما وجده بشيزر من حقد البعض عليه ، وظلم التافهين وحبائل الكائدين له فقال واصفاً هذا الإحساس[٢٨]:

ولست أسى على الترحال عن بلد شهب البزاة ســـواء فيـــه والرخـــم

تعلقت بحبال الشمس منه يـــدى ثم انثنت وهى صفر ملؤهـــا نـــدم

ولا ينى أسامة عن وصف شعوره بالوحدة والانفراد فى دمشـــق ، وإحساسه بالغربة بين أهلها ، لما لمسه فيهم من ازورار عنه ونفور منـــه وإهمال له ، ومن سعى إلى الابتعاد عن معاشرته ، فهم ليســـوا ذوى ود ومعاشرة كما يقول[٢٩]:

أنا فـــى أهـــل دمشـــق وهـــم عدد الرمـــل ، وحيـــد ذو انفـــراد

ليس لى منهم أليـــف وشـــجت بينـــا الإلفـــة أســـباب الـــوداد

يحســـبونى إذا رأونـــى وافـــدا قد أتاهم مـــن بقايـــا قـــوم عـــاد

ويتضح الإحساس النفسى فى هذه الأبيات والأبيات التـــى ســـبقتها حيث يبث أسامة شكواه من أهل دمشق وما لمسه منهم من إساءة ونفور ، على الرغم مما لقيه من رعاية صديقه وظهيره الأمير معين الدين أنـــر ، وزير شهاب الدين محمود .

وتأكيد الشاعر لهذا الجانب يجعلنا نفترض أن فى نفسه فرطاً مـــن حساسية ، وفى طبعه ما يدفع الناس إلى الازورار عنه .

ومن هذا الإحساس صور الشاعر ضيقه بالوحدة والانفراد فى مدينة دمشق ، وعلى الرغم من حبه العام للشام وثغورها ومدنها ، إلا أن بلـــده شيزر وحصنها –وهى موطن ولادته ونشأته– ظلت تتجذر فـــى وجـــدان أسامة إلى درجة العشق بكل ما فيها ؛ أرضاً وأهلاً وأقارب وأحبة . لقـــد تشربت روحه إلى درجة التوحد بها ، حتى راح فى كل حـــدث ومناســـبة يبث شكواه من الدهر وعتبه عليه ، لأنه حمله بعيداً عن وطنـــه وأهلـــه .

وقد عبر عن هذا الموقف بالمفردات التى تعكس إحساسه بالمكـــابدة مـــن الغربة ، وما تؤول إليه من شعور بالوحدة والمـــلال والفـــراق والشـــتات والبعد والشقاء والعذاب والتبرم بالحياة . يقول[٣٠] :

يا دهـــر كـــم هـــذا التفـــر ق والتغـــرب والشـــتات
نـــاء عـــن الأهلـــــين وال أوطان والأتراب مـــاتوا
ولبئـــس عيـــش المـــرء فـــا رقه الأحبـــة واللـــدات
فـــإلام أشـــــقى بالبقـــا ء وكم تعذبنـــى الحيـــاة

فهو يتألم من غربته التى طالت ، وبعده عن الأهل والوطن والأحبة ، ويذم عيشاً انتهى بالفرقة بينه وبين أصحابه ، وهو هنا يعكـــس موقفـــه الصادق تجاه الأهل والأحبة ، كما يجسد عمق انتمائه إلى جذره وأهله.

ويبدو لنا أن فراق الأهل والوطن والأحباب ، كان يحز فى نفـــس أسامة حزاً شديداً يلامس عواطفه ومشاعره ، حتى ليمكن إنه كان مسكوناً بهواجس الألم والشقاء التى تبدو فى كل سانحة عبر فيها عن هذا الفـــراق بالإحساس الصادق والشعور الدافق ، وبما يعكس ألمه الشديد لهذا الفراق وقد عبر عنه بنزف الدموع وشكوى الزفرات وكـــابدة التشـــتت وجـــرح المفارقة وألم الغربة ، فيقول[٣١] :

وإذا الدمـــــوع نزحـــــن فـــالزفرات بالشـــكوى تبـــــوح
أحبابنـــا كمـــــا ذا يشـــتت شملنـــــا البـــين الطـــــروح
وكـــــم التفـــــرق ؟ آن أن تدنـــو الديـــــار وأن تروحـــــوا

ويلحظ فى الأبيات ، حرص الشاعر على وحدة الأهـــل والقربـــى وصلة الرحم ، ويبدو ذلك فى مفرداته : التشتت ، والبيـــن ، والتفريـــق ، وتدنو الديار ، وغيرها من الألفاظ التى يتشكل منها معجم هذه الأبيـــات . وهذا يؤكد سلامة الفكرة التى تنطلق منها معانيه التى تعبر عـــن الغربـــة والفراق .

ويواصل أسامة بث شكواه فى هذه القصيدة التى تتجسد فيها حسرته على نهاية أهله وأصحابه وأحبته ممن غالهم الزلزال المدمر ، فقضى على معظمهم ، فيذكر تصدع وحدتهم وانتهاء حياتهم ، ويصور شعوره بالموت من بعدهم ، مما يعكس نضج أفكـــاره ، وصـــدق أحاسيســـه ، وحـــرارة عواطفه ومشاعره الإنسانية والأسرية وهو ما لاحظناه فى معظم قصـــائده التى بكى فيها أهله وأصحابه . ويطفح رثاؤه بهذه الأفكار ، فيقـــول مـــن القصيدة نفسها :

لم يبـــق مـــن لدتـــى وأتـــــرا ب الصبـــــا خـــــل نصـــــــوح

غـــــالتهم الدنيـــــا وصـــــــد ع شملهـــــم زمـــــن نطـــــوح

أنـــــا بعدهـــــم ميـــــت ولى مـــن جســـمى البـــالى ضريـــــح

وكما شكا أسامة من بعض أهله واقاربه وإساءتهم إليه ، فقد شـــكا غدر أحبابه ، وتلونهم إزاءه فقال[٣٢] :

قمـــــر إذا عاتبتـــــــه كـــانت قطيعتـــه جوابـــى

متجـــرم أبـــداً يجـــــر عنـــى مـــرارات العتـــاب

كم ســـــهلت عينـــاه لى من وصله بعض الطـــلاب

حتى وقعـــت ولم يكـــن هذا التلون فـــى حســـابى

وأقوى من هذا ، تجسيده للوعة فراق الحبيب ، وتصويره لحرقـــة قلبه لبعده عنه ، وتشوقه للقرب منه ، وعمق حبه الـــذى يتفـــأ بحـــرارة عواطفه وخفقات قلبه فيقول[٣٣] :

بنفسى بعيد الدار بى من فراقـــه جوى لو رآه البعد رق لـــه البعـــد

بقلبي من شـــوق إليـــه ولوعـــة عليه ، غليل ليـــس يـــبرده الـــورد

وما برد أحشائى على ما تضمنت من الوجد إلا مثلمـــا بـــرد الزنـــد

ويكثر اسامة من شكوى البعد عن الحبيب ، ويعبر عن ضيقه منه ، ويعجب من التشتت بعد الألفة ، ومن البعد بعد القرب فيقول[٣٤] :

إذا مر ذكراكم بقلبى تضـــايقت ضلوعى عما تحتهـــن مـــن الوجـــد

وأعجب من تشتيتنا بعـــد ألفـــة ومن نقلنا بعـــد الدنـــو إلى البعـــد

ومثل هذه النماذج ، تصور طبيعة الشاعر وشخصيته التى تراوحت بين الجد الذى يصوره فارساً طموحاً وقائداً عنيداً حينا ، وحبيبـــاً عاشـــقاً مقبلاً على الدنيا ومتاعها ، حيناً آخر .

الشكوى من الأصدقاء :

كما شكا أسامة من الأهل والأقارب والأحبـــة ، فقـــد شـــكا مـــن الأصدقاء الذين ازوروا عنه أيـــام محنتـــه ، وأخلـــوا بوعودوهـــم معـــه وإخلاصهم له ، وأكثر ما شكا من الأصدقاء ، غدرهم له فقال[٣٥] :

انظـــر بعيشـــك هـــل تـــــرى أحـــداً يـــدوم علـــى المـــــودة[٣٥]

لــــترى أخــــلاء الرخـــــا ء عــــداً إذا نـــابتك شــــدة

وأشد ما كان يؤذي أسامة من الصديق ، بعده عن الوفاء ، فضـــلاً عن غدره ، يقول(٣٦) :

ولا تجــزع لعــذر مــن خليــل فقد نســخ الوفــاء مــن الخليــل

ويشتكي من صديق آخر لغــدره وصــدوده وتنكــره بعــد وده ، فيقول(٣٧):

صديــق لى تنكـــر بعـــد ود وأم الغــدر فــى الدنيــا ولـــود

أراه مالالــه حســنى قبيحــــاً فصد ، وأيســر الغــدر الصــدود

وفى مكان آخر يشكو أسامة من صدود الأصدقاء ، ومن خيـــانتهم للعهود فيقول(٣٨) :

ألا أبلغا عنى أناســـاً صحبتهــم فما حفظوا عهداً ولا راعوا الـــودا

بأنى وإن حالت بى الحال لم أقــل لهم واصفاً شوقاً ولا شاكياً وجــــدا

ويشكو أسامة من الأصدقاء الذين جفوه بعد ود ، ونأوا عنــه بعــد حب فقال(٣٩) :

وقد ساءنى أن الليـــالى غــيرت أخلاي حتـــى مــا يــدوم خليــل

وفى مكان آخر يشكو من كذب الأصدقاء وتلونهم وبعدهـــم عــن الإخلاص فيقول(٤٠) :

لنا صديق يغر الأصدقـــاء ومــا رأيته قط فــــى ود امــرئ صدقــا

صديقه أبداً منــــه علــى وجــل كراكب البحر يخشى دهره الغرقـــا

ومن خلال هذه النماذج من الأصدقاء فإن أسامة (أصبح يمقتهم ويمقت كل ما فى العالم ، حتى ظله يكره أن يصحبه ، خوفاً من أن يكون فيه ما فى الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة. ويقول أنه ليس فى الناس خل صادق العهد فى النعماء والبأساء ، بل إذا نابتك ضراء لم يسعفك ولم يساعدك ، إنما يعرفك فى اليسر أما فى العسر فلا يودك ، ولا يعرف لك طولاً ولا فضلاً ولا يسد لك ثلمة ، ولا يقدم لك عوناً ، فاعتزل الناس وايأس من أن يردوا لك معروفاً أو جميلاً ، تعش أمنا عزيزاً)[٤١] وفى ذلك يقول[٤٢] :

حذرتنى تجاربى صحبة العا ... لم حتى كرهت صحبة ظلي

ليس منهم خل إذا ناب خطب ... قلت ما لى لدفعه غير خلى

كلهم يبذل الوداد لدى اليس ... ر ولكنهم عدى للمقل

فاعتزلهم ففى انفرادك منهم ... راحة اليأس من حذار وذل

ولو رحنا نتأمل هذه النماذج التى أوردها أسامة فى الصداقة والأصدقاء ، لرأيناها وثيقة لصورة العصر وأخلاق الناس ونماذجهم ، بل هى تعد أيضاً شاهداً على عصر اسامة الذى اختلت فيه القيم والمقاييس الأخلاقية والاجتماعية ، وتضعضعت العلاقات بين الناس ، مما يعطى هذا الشعر قيمة توثيقية صادقة ، لا لأنها تقدم صوراً لنماذج مختلفة فى مجتمع الشاعر وحسب ، بل لأنها صدرت عن خبرة إنسان وعن عصره ، وفهم مجتمعه وأناسه ، ولأنها صدرت عن تجربة صادقة عاشها الشاعر بنفسه واكتوى بنارها ، وصورها خير تصوير فى شعره .

الشكوى من الدهر والاغتراب :

كان لكثرة الترحال أثره فى شعر اسامة ، فكثيراً ما شكا الفرقة والاغتراب وكثرة جوبه للبلاد ، وتحس فى هذا الشعر لوعة الحرمان وألم الشوق إلى الوطن المفارق والآل الغائبين فتسمعه يقول[٤٣] :

أهكذا أنا باقى العمر مغترب ... ناء عن الأهل والأوطان والسكن

لا تستقر جيادى فى معرسها ... حتى أروعها بالشد والظعن

ويقول فى مكان آخر[٤٤] :

أين السرور من المروع بالنوى ... أبدا فلا وطن ولا خلان

وفى النصين السابقين تجسيداً لما آل إليه وضع الشاعر من إحساس الغربة والشعور بالضياع أسلماه إلى هذا الوضع المفعم باليأس .

ويلحظ أن الوطن والأهل قد اندغما فى شعر أسامة فى وحدة فكرية شديدة الوضوح فى مجموعة من الأشياء يتصدرها الوطن والأهل والأحبة.

ولطالما ألقى اسامة اللوم على الدهر فى حله وترحاله ، وتغربه وشتاته ، وحين يكابد ألم الفراق وعذاب البعد عن الأهل والأحبة ، فهو قلق أبداً لا يثبت على حال ، ولا يستقر له بال ، بعيد عن الإخوان والأوطان ، لا يعرف ما يحل بهم ، أو يعصف بمصيرهم ، ويرى أن عيشنا ينتابه فراق الأحبة هو الشقاء بعينه ، والبؤس بنفسه ، ويتعجب من حياة يسودها شقاء الغربة والبعد فيقول[٤٥] :

يا دهر كم هذا التفرق والتغرب والشتات

ابـــدا علــــــى ســـــير كـــــأ نــى الشــمس ليــس لهــا ثبــات
متقلقـــل العزمـــات كــــالمطلو ب أفرقــــــــه البيــــــــات
نـــاء عـــن الأهلـــين والأوطـــا ن والأتـــــراب مـــــــاتوا
ولبئـــس عيـــش المـــرء فـــا رقـــه الأحبـــة واللـــــذات
فـــإلام أشـــقى بالبقـــا ء وكـــم تعذبنـــى الحيـــاة

وفى هذه الأبيات أيضاً يذكر الشاعر عناصر الإحساس بالغربة وهى الوطن والأهل والأقارب والأحبة ، ونردد مع أسامة ، هل هناك أصعب على الإنسان من أن يبتعد عن الوطن ويفارق الأحبة ويهجر الأهل وينأى عن أصدقاء العمر؟

وقد تخلل أسفاره وترحاله وتغربه الكثير من المتاعب والمكابدة ، حملته الكثير من الهموم ، كالأخطار على حياته ، وتبدد لأمواله التى نهبت فى بعض أسفاره وتنقلاته من بلد إلى بلد آخر .

ومن ذلك ما كان من (تبدد ثروته ، ونهب بعضها وغرق بعضها ، فى البحر عند خروج أسرته من مصر ... أثره البالغ فى نفسه وأثره القوي فى شعره شكا ذلك إلى الملك الصالح ، وطلب منه المعونة)[٤٦] فقال يخاطبه[٤٧] :

أنا أشكو إليك دهراً لحـــا عـــو دي وأعراه فهـــو يبـــس سـليب
وخطوبا رمى بها حادث الدهـــر ســـوادى وكلهـــن مصيـــب
أدهبت تالدى وطار فـــى الطـــا رى فضاع المـــوروث والمكســـوب
فهو شطران : بين مصـــر وبحـــر ذا غريـــق فـــئ وذا منهـــوب

ويشكو أسامة الدهر أحياناً ، لما أصاب ذويه الذيـــن أفنـــاهم هـــذا الدهر، وكأنه هو المسئول عما أصابهم فى الزلزال الذى دمرهم فقال(٤٨) :

والدهر لا ينفك يـــبرى أو يريـــش لنـــا النبـــالا
ويصدنـــا عمـــا نحـــا ولـــه جهـــاراً واعيـــالا
وإذا حمدنـــاه علـــى حـــال تنكـــر واســـتحالا

فقد منح الدهر صفة التشخيص فى استعارة جميلة ليجعل منه شيئاً مخيفاً ومؤذياً لا يمكن الإفلات من قبضته ولا الهروب من شره ، وكـــأن أسامة يصور نفسه ضحية لهذا الدهر .

ومع ما لقيه أسامة من أذى الدهر وتسلطه ومن عبثـــه بمقـــدرات حياته وحياة أسرته ، إلا أنه اعترف بتقلبات الدهر من حـــال إلـــى حـــال أحياناً.

وكأنه أراد أن يخفف من غلواء تسلطه وأذاه ، ففى البيتين الآتييـــن يرى الشاعر أن الدهر دول تتقلب فيها الأحوال وتتغير فيها الدول ، وهو ما يهون عليه من شدة بطشه وغلواء شره ، فيقول(٤٩) :

يهون الخطب أن الدهر ذو غـــير وأن أيامـــه بـــين الـــورى دول
وأن ما سر أو ما ســـاء منتقـــل عنا : وإلا فإنـــا عنـــه مـــن ننتقـــل

الشكوى من الشيخوخة :

كما شكا أسامة من الأهل والأقارب والأصحاب فقد شكا من الشيخوخة (وكان أشد مكروهات الحياة على نفس أسامة ، ما أصاب جسده من ضعف ووهن فى شيخوخته ، ... ومع أنه بكى شبابه وتحسر عليه فى وقت مبكر من حياته الطويلة ، إلا أننا نلحظ شدة إحساسه بوطأة الزمن مع إقبال العام السبعين من عمره)[٥٠] وشعوره بالعجز والضعف والملل من الحياة فى ظل هذه الحال . إلا أنه ظل بعد هذه الفترة أكثر من ربع قرن يعانى غصص الشيخوخة (مع الثمانين يزداد إحساس اسامة بمرارة الحياة وقسوة الأيام ويطلعنا شعره على الآلام النفسية والعضوية التى عاناها أسامة فى شيخوخته ، وتلك المحاولات اليائسة التى كان يبذلها ليقيم من بنيان جسده المتهدم)[٥١] يقول[٥٢] :

مع الثمانين عاث الضعف فى جسدي ... وساء فى ضعف رجلى واضطراب يدى

إذا كتبت فخطى جد مضطرب ... كخط مرتعش الكفين مرتعد

وإم مشيت ففى كف العصا ثقلت ... رجلى كأنى أخوض الوحل فى الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته ... (هذى عواقب طول الدهر والمدد)

وفى شكواه من الشيخوخة ، يبلغ شعر اسامة حداً عالياً من الدقة ، فهو لا يترك أثراً من آثارها الجسدية والنفسية إلا ويعرض لها ولتأثيرها فى نفسه ، كما يشير إلى ما له صلة بهذه الشيخوخة كالمرض والحاجة إلى ما يستند إليه من عصا وغيرها .

وتبلغ الدقة فى وصف هذه الشيخوخة مبلغاً كبيراً فى استعراضه للعديد من أجزاء جسده التى تأثرت بالكبر والشيخوخة كسمعه وبصره

وركبتيه ورجليه ويديه وحال كل جزء منها ، وما تغير وما انتابه بفعل تقادم الزمن ، من ذلك إشارته إلى ركبته فى قوله[٥٣] :

ركبتى تخدم المهذب فى العلم وفى كل حكمة وبيان

ومن ذلك إشارته إلى تقوس ظهره واستعانته بالعصا فى المشى ، مما دفعه إلى الشعور بالملل من الحياة وتكاليفها وكثرة أعبائها وضعف تحملها ، ومما ينتهى إليه الأمر من ضعف فى مرحلة الكبر ، وهو ما دفعه إلى تفضيل الموت على الحياة ، فيرى فيه راحة وأمنا ، فيقول[٥٤]:

إذا عاد ظهر المرء كالقوس والعصا له حين يمشى وهى تقدمه وتر

ومل تكاليف الحياة وطولها وأضعف من بعد قوته الكبر

فإن له فى الموت أعظم راحة وأمنا من الموت الذى كان ينتظر

وهو يفضل الموت على حياة تكتنفها المتاعب ، وجسد يتعرض للضعف والوهن الذى شمل سمعه وبصره وضعف قوته ، فضلاً عن القلق الذى استبد به (وتطول أشعار أسامة المؤثرة فى وصف ما آل إليه أمره ، واستحال إليه حاله ، فيعرض علينا فى أسى مؤثر ونبرة حزينة ما أصاب جسده من ضعف وما أصاب بصره من كلال وسمعه من تبلد ، وكيف تقاربت خطواته ، واستبد به السهد والأرق ، ويذكر فى حسرة ومرارة كيف أبدله الدهر من الرمح العصا)[٥٥] يقول[٥٦] :

لما بلغت من الحياة إلى مدى قد كنت أهواه . تمنيت الردى

فإذا نهضت حسبت أنى حامل جبلاً وأمشى إن مشيت مقيدا

وأدب فى كفي العصا وعهدتها فى الحرب تحمل اسمرا ومهندا

وأبيت في لـــين المهـــاد مســـهدا قلقـــا كـــأني افترشـــت الجلمـــدا

وفى سن الشيخوخة يشكو اسامة (طول العمر وثقل الحياة عليـــه ، فحيناً يجد فى الموت أعظم راحة تنقذه من ضعفه ، وحينا تنهـــال عليـــه ذكريات شبابه وصباه ، وحيناً يأسف على أنه لم ينل فى شبيبته من المتع والملاذ ما كان جديراً أن يظفر به فى عصر الشباب ، وحيناً صور أسامة نفسه محنياً على عصاه وقد تقوس ظهره وصارت العصـــا وتـــراً لهـــذا القوس)[٥٧].

وعلى أى حال فإن شكوى أسامة من الشيخوخة قد قدم لنا صـــورة صادقة لمرحلة مهمة من حياته بعد أن استوت لديه الخبرة والحكمة ، بـــل قدم شعر هذه المرحلة صوراً شعرية نابضة بالحركة والحيـــاة ، جديـــرة بعمق التجربة ومشحونة بصدق الإحساس ، وحرارة العاطفـــة ، وغنيـــة بالدلالات الإنسانية العميقة .

الشكوى من الظلم :

على الرغم من أن أسامة بن منقذ أمير ومن بيـــت إمـــارة ، إلا أن حياته قد تعرضت للكثير من المتاعب والمنغصات ، انتهت فى كثير مـــن الأحيان إلى التعبير عن الألم واليأس والشعور بالإحباط فـــى مـــا لاقيـــه وصادفه ،وانتهى به إلى الشكوى من الشعور بالظلم فيما يصيبه .

ففى قصيدة طويلة بعثها إلى الملك الصالح ، يشكو أسامة مما لحق به من ظلم ويضع المسؤولية فى ذلك على (الزمان) الذى جار عليه فأنفد أمواله وشتت شمله ، وربما قصد فى ذلك ، أمواله التى نهبت فى مصر ،

وفقدت من عائلته فى البحر ، وربما يقصد كذلك ما أصاب أهله فى زلزال شيزر الذى أتى على معظم أفراد عائلته ، يقول[٥٨] :

إليك يا عادلا فى حكمه وعلـــى أمواله من قضايـــا جـــوده الجنـــف

أشكو زمانا مضى بالجور فـــى ولم يزل يجور علـــى مثلـــى ويعتســـف

لحت نوائبه عودي وأنقـــد مـــو جودى وشتت شملى وهو مؤتلـــف

وقد دعوتك مظلومـــا ومرتجيـــا وفى يديك الغنى والعدل والخلـــف

وواضح هنا أن أسامة ، يســتعطف الملــك الصــالح ، ويترجــاه للتعويض عما فقد من أموال . وهو يهتم فى معظم ما يقع عليه من عسف وظلم ، الدهر والدنيا والحياة ، وقلما أشار إلى ظالم بعينه من الناس الذين اتصل بهم ، يقول[٥٩] :

والظلم فى الأرض ما نعى كل ما أبغيـــه حتـــى زيـــارة الرمـــم

وما ظننت الذى لقيت من الـــد نيـــا تـــراه عينـــاى فـــى الحلـــم

فالمسؤول فى هذين البيتين عن ظلمه هى الدنيا كما يتضـــح فـــى قوله.

وأحياناً يلقى اللوم على الحاكم فى ظلمه ، ولكنه لم يصـــرح لنـــا باسمه كقوله[٦٠] :

ظلمتنـــى دولـــة العـــد ل فمـــن يكشـــف ظلمـــى

ومتـــى يحكـــم لى بـــالعد ل والحـــاكم خصمـــى

ونرجح أن يكون هذا الظالم ، عمه حاكم شيزر ، الذى طلب إليه الرحيل هو وأفراد عائلته من مدينة شيزر ، ونعلم أنه غادر وطنه مرغماً كارها.

وفى هذه النصوص التى يتحدث فيها الشاعر عن الظلم ، يتضح أنه لم يكن على شئ من الراحة والاستقرار ، كما لم يكن على وفاق مع الذين اتصل بهم وعمل فى خدمتهم ، وكذلك لم يكن على وفاق مع الكثيرين من الأهل والأقارب والأصدقاء ، وبالتالى فإن هذه الصورة التى يحملها شعر أسامة ، تقدم لنا شهادة على عصره المتهرئ ومجتمعه الممزق ، الذى كانت تسوده الصراعات والخلافات والفتن والمؤامرات التى لم ينج أسامة من الإسهام فيها ، كما تذكر ذلك الأخبار[٦١].

ومع شعور الشاعر بهذا الظلم ، إلا أننا نحس بأن (أسامة كان راضياً عن نفسه بالارتحال الذى نأى به عن الضيم ، وبعد به عن أن يسام بالخسف والهوان)[٦٢].

ولذلك وجدناه أحياناً يفصح عن اعتداده بأنفته وعزة نفسه ، كأن يقول[٦٣] :

أأسأف خسفاً ثم لا آبى فلست إذاً أسامه

فهيهات لا ترضى المعا لي صاحباً يرضى اهتضامه

ونظن أن أسامة لم ينج -كما قلنا- من المشاكل والمتاعب التى تعرض لها أثناء غربته وأسفاره وتنقلاته من بلد إلى بلد ، ولا شك أنه قد لحق به الكثير من الأذى الذى أوهى عزيمته أحياناً ، وقضى على آماله أحيانا أخرى ، وهو ما دعاه فعلاً إلى أن يكثر من الشكاوى لينفس بها عما

أصابه فى محنه الكثيرة ، خصوصاً إذا علمنا أنه كان يشارك فى المشاكل السياسية والصراعات الشخصية على السلطة ، وخاصة أثناء إقامته فى مصر التى وقعت فيها أحداث وفتن سياسية ، ومنها (الفتنة التى خرج بها الوزير عباس فى مصر وأسامة معه ، وهو يريد التوجه إلى نور الدين محمود بن زنكى بدمشق مستنجداً به ... ومنها اغتيال الوزير ابن السلار من قبل ناصر الدين نصر بن عباس بتحرسض من أبيه عباس عليه .... وقمع عباس الثورة بعد قتال شارك فيه أسامة)[٦٤] (وحين يقتل ابن السلار وزير الخليفة الفاطمى يتهم أسامة بن منقذ بتدبير هذه الجريمة)[٦٥] وهذا يدل على أن أسامة كان يزج بنفسه فى آتون المشاكل السياسية والصراعات على السلطة فى مصر وفى غيرها ، ولا شك أن سهام هذه المشاكل كانت تصيبه أحياناً فيشعر إزاءها بالظلم ويجأر بالشكوى.

الشكوى من الهموم :

إن التقلبات التى واجهت أسامة ، والمشاكل التى لحقت به فى أسفاره وتنقلاته وغربته ، قد ألقت على كاهله الكثير من الهموم التى شكا منها ، وصور بعض جوانبها التى ألقت به فى أحضان اليأس والأسى.

وهموم أسامة كثيرة ، أفصح عنها فى تصويره لها ، بعد أن ضاق بها ذرعاً ، كان أولها شعوره بألم البعد عن أهله الذين تركهم فى شيزر قاصداً العراق والشام ومصر وغيرها ، ذلك لأن أسامة ترك شيزر كارهاً مرغماً بأمر عمه حاكم المدينة.

ففى قصيدة كتبها إلى أخيه عز الدولة الذى ظل فى شيزر ، يــرى أن البعد عن أهله يثقل القلب بالهم ولا يزول[٦٦] :

أبا حسن قد ران بعــد بعــادكم   على القلب هــم مــا أراه يــزول

ويرى أن أيام الهموم طويلة ثقيلة :

إذا قلت فى أعقاب ذا العام نلتقى   تمــادى ، وأيــام الهمــوم تطــول

ويبدو لنا أن مفارقة أهله ومغادرة وطنه تشكل أقوى الهموم وأشدها فى نفسه ، ومن ذلك أنه كرر المعنى السابق فى قصيدة أخرى كتبها إلــى الوزير نظام الدين يقول فيها[٦٧] :

نظام الدين كــم فــارقت خــلاً   وكم صليت حشاى لظى اشــتياق

وها أنا ذا لبعــدك إلــف هــم   تفيض لــه النفــوس مــن المــآقى

كما كتب فى المعنى نفسه إلى شمس الدين ابن أخيه يقول[٦٨] :

أبا حارث ، اسلم من حوادث دهرنا   ومن حر أنفاس المشــوق المفــارق

أذم إليــك الــبين إن وشــيكه   رمى كل عظم من عظــامى بعــارق

أروح وأغدو فى هموم تعوذنــى   فيالى من همــين : غــاد وطــارق

وينسحب هذا المعنى على كل قريب وصديق ، حتى لنجد أن أشــد هموم الشاعر تتمثل فى تجشمه عناء الغربة والبعد عن الأهل والأصحاب.

وأحياناً يشير إلى الأيام ، ويحملها ما تصيبه من هموم ، وما تكلفه من أذى وأوجاع لا يستطيع حمل كاهلها ولا تحمــل أعبائهــا ، ويشــكو تأثيرها فى نفسه فيقول[٦٩] :

فلي شكوى من الأيام أضحت لها نفسي تردد في التراقي
أكلف من أذاها فوق وسعي وأحمل كارهاً غير المطاق

ففي البيتين ، شكوى من الأيام ، فيهما تصوير لضيق نفسه مما تحمله الأيام من أذى ومتاعب ، وقريب من هذا قوله(٧٠) :

إلى الله أشكو عيشة قد تنكرت عليّ ودهراً قد ألحت نوائبه
تكدر من بعد الصفاء نميره وأحزن من بعد السهولة جانبه

أما في هذين البيتين فإشارة واضحة إلى شكوى الشاعر من إحساسه بالنكد ، وما يلح عليه من نوائب الدهر ، وما يكدر صفو عيشه من أحزان ومنغصات ، وكل ذلك يضغط على إحساسه بما يحيط به من هموم وما ينتابه من عناء الحياة وما فيها .

(ومن أشد مكروهات الحياة على نفس أسامة ، ما أصاب جسده من ضعف ، ووهن في شيخوخته)(٧١) خصوصاً حين بلغ الثمانين من العمر (فقد ازداد إحساسه بمرارة الحياة وقسوة الأيام ، ويطالعنا شعره على الآلام النفسية والعضوية التي عاناها أسامة في شيخوخته)(٧٢).

ولا يخفي أسامة برمه بالحياة ، إذ تضيق نفسه من كثرة الحوادث والخطوب ، ويقع في هواجس الإحباط من كل ما يحيط به ، فيصرخ معبراً عن ذلك بقوله(٧٣) :

برمت من الحياة فكل عمري تصرم بالحوادث والخطوب
فما ظفرت يدي بسرور يوم بغير هموم وحادثة مشوب

فهو يعبر عن ضيقه من الحياة التـــى مـــلأت نفســه بـــالخطوب والأحداث ، وأفرغتهـــا مـــن الســـعادة والمســـرات وداهمتهـــا بـــالهموم والمنغصات ، لم يعرف يوماً واحداً يخلو من المتاعب والمصائب . وقـــد ألمحنا إلى هذا الجانب فى حديثنا عن الشكوى من الشيخوخة .

ملاحظة فنية :

يحاول الباحث فى محور الدراسة الفنية لشعر الشكوى أن يجلي ما يمتاز من هذه المسائل التى لا يمكن تجاوزها فى هذا البحث ، ذلـــك لأن شعر الشكوى يحتفظ بالعديد من القضايا التى تستحوذ علـــى شـــعر هـــذا الشاعر.

وأول ما يصادفنا منها ، مسألة الإيقاع وفـــى مقدمتهـــا ، ظـــاهرة التكرار والجناس اللتان ينبثق عنهما إيقاع القصيدة عند أسامة .

ومن ذلك قوله يعبر عن لائميه لكثرة شكواه من الفراق فيقول[٧٤]:

وألام فى شكوى جواي وقلمـــــا يحظـــى المفـــارق بـــالرفيق الرافـــق

ففى الشطر الثانى تكرار لثلاثة حروف هى الراء والقاف والفـــاء ، وهى تعكس فى تكرارها نغماً ملحوظاً يتفق مع حالته النفسية التى يسودها القلق جراء بعده عن الأهل والأحبة ، وربما يكون للمد الذى تحققه الألف فى (مفارق ورافق) دلالة نفسية واضحة تنسجم مع لفظتى البين والفراق.

وقافية القاف لها أهميتها الصوتية فى الوظيفة الإيقاعية ، وتأثيرها فى الواقع النفسى ، وهذا يذكرنا باختيار أحمد شوقى لقافيـــة القـــاف فـــى قصيدته المشهورة (النيل) التى يفتتحها بقوله[٧٥] :

من أى عهد فى القــرى تتدفــق   وبأي كــف فــى المدائــن تغــدق

ومن جمال تكرار الحرف فى شكوى أسامة قوله[٧٦] :

وما أشـــكو تلــون أهــل ودى   ولــو أدت شــكيتهم شـــكوت

وهو تكرار حرف الشين فى (أشكو وشكيتهم وشكوت)

وحرف الشين ومع السين من الحروف التى تعكس نغمـــاً ممتـداً يصلح توظيفه لموقف الحزن والأسى . وأكثر تعبيراً عن الأسى ، وتأكيداً للعنصر النفسى ، تكرار حرف السين فى البيتين الآتيين ، فى قوله[٧٧] :

كتابى ولولا أن يأسى قد نهى اشـ   تياقى لذاب الطرس فى حـر أنفاسـى

وبعد فعندى وحشة لو تقســمت   على الخلق لم يستأنس الناس بالناس

ففى البيت الأول تكرر حرف السين ثلاث مرات ليحقق انسجاماً مع (حالة اليأس) التى تسكنه أبدا فى موضوع الشكوى.

وفى البيت الثانى يتكرر الحرف نفسه أربع مرات ليؤدى الوظيفـة نفسها ، وكلا البيتين يتحدان فى تأمين الإيقاع الوظيفى الذى ينســجم مـع حالته النفسية المحبطة .

ويبدو أن أسامة يمتلك إحساسا خاصاً بوقـع الكلمـة بمـا يحقـق الانسجام مع الحالة النفسية المحبطة ، ولذلك وجدناه يكثر كثرة مفرطة من تكرار حرفى الشين والسين فى شعره مما يؤمن الإيقاع المطلوب.

ومن ضمن أهدافه فى ذلك -على أغلب الظن- وضع العلاقة بيـن شكل البيت ومضمونه ، فضلاً عن توليد الإيقاع وهذا مـا نلحظـه فـى قوله[٧٨]:

ولكن نفسي قد تملكهـا الأســى وقلبي إذا ســكنته بالأســى عفـا

فقد كرر حرف السين أربع مرات للغرض نفسه ، كما كرر حرف الشين ثلاث مرات فى البيت الآتى بقوله(٧٩) :

أصبحت لا أشكو الخطوب وإنمـا أشكو زمانـاً لم يـدع لى مشـتكى

وهو ما يعكس حالة الشكوى أولا ، ويقدم إيقاعاً منسجماً مع الوضع النفسى المتأتى عن المتاعب التى دفعت الشاعر إلى الشكوى ، ومما يعكس تكرار الحرف ، قوله مشيراً إلى إحساسه بالضيق والعسف(٨٠) :

سعى بها أروع في الروع ذو ورع في السلم حتى تجلى الجور والجنـف

ففى البيت تكرار لحروف الواو والراء والعين ، كما يتكرر حرف الجيم ثلاث مرات فى الشطر الثانى ليحدث فى تكراره إيقاعاً وظيفياً .

وإذا كان هذا التكرار ، يحقق -كما ذكرنا- إيقاعاً ينسجم من حالة الشاعر النفسية وفى موضوع الشكوى عن الخصوص ، فهو لا ينفصل عن وظيفته الفنية التى سادت عصر اسامة وما سبقه من عصور من عناية مفرطة بألوان البديع المختلفة ، وخاصة الجناس ، فقد كانت مهارات الشعر فيه تقوم على حشد هذه المسائل فى شعرهم من دون العلاقة الجدلية بين الموضوع وبين الفن ، ذلك أن كثرة الجناس وزيادة التكرار ، جاءت عندهم أشبه بالمساحيق التى تفرط المرأة فى استخدامها فتخرج بها عن غايتها المنشودة ، على الرغم من أن أسامة كان قد تجاوز قسماً من هذه العيوب ، بما يمتلك من قدرة ومهارة ، ولكنه أيضاً لم يستطع أن يتجاوز مفهوم عصره فى الفن تجاوزاً تاماً ، ولذلك ظلت بعض تشبيهاته وجناسه

وطباقه ، لا ترتبط بمضامين إنسانية ، كما ظلت الصورة الشعرية يغلب فيها الشكل على المضمون بشكل واضح .

وإذ نغادر التكرار والجناس ، وقد التمسنا فيهما قدراً من الإيقاع فإننا نجد أنفسنا أمام ظاهرة لفظية أخرى تحقق جمالاً شكلياً آخر في هندسة بناء القصيدة ، ذلك هو الطباق . وقد كان الأوائل يولونه أهمية خاصة في تحقيق المعنى والمبنى ، وها هو ذا أسامة بن منقذ يقدم نوعاً من الطباق ، موظفاً إياه توظيفاً ناجحاً ، منطلقاً من ثقافته اللغوية والبنائية، ومن معجم غير عاجز عن تقديم الأجمل في بناء القصيدة من ذلك قوله معبراً عن مكابدته ألم الفراق لأهله[٨١] :

إذا نر ذكراكم بقلبي تضايقت ضلوعي عما تحتهن من الوجد

وأعجب من تشتيتنا بعد إلفة ومن نقلنا بعد الدنو إلى البعد

فقد قدم في البيت الثاني طباقين جميلين بين (التشتيت والألفة) من جهة ، وبين (الدنو والبعد) من جهة أخرى ، ليجعل في تاثيرهما أثراً نفسياً ، فضلاً عما أنجزه في البيت الأول من استعارة تجسد إحساسه بالضيق والألم وذلك بقوله (تضايقت ضلوعي) .

وأوضح من ذلك طباقه الجميل في قوله[٨٢] :

لئن فرق الدهر المشتت شملنا فأصبحت في شرق وأمسيت في غرب

فقد طابق في البيت بين (أصبحت وأمسيت) وبين (شرق وغرب) فضلا عن تكرار حرف الشين ثلاث مرات .

وهذا الطباق يتضح فى المفارقة المعنوية بين اللفظتين المختلفتين ، ومن طباقه ما ورد فى قصيدته التى بعث بها إلى أبيه يستعطفه قائلا[٨٣] :

سقم الجفـــون ســـقامه وشـــفاؤه فيها ، فمنها الداء ، وهـــى الراقـــى

فقد طابق فى البيت مطابقة نزدوجة بين (شفاء وداء) من جهـــــة ، وبين (شفاء وسقام) من جهة أخرى ، وهى مطابقة تحدث انســـجاماً بيـــن جانبيها الشكلى والمعنوى ، إذ إنها تجسد إحساس الشاعر بالموقف الـــذى تعرض له مع أبيه .

ومثل هذا كثير فى شعر أسامة ، وخاصة شعر الشكوى.

****

وإذ نواصل الحديث عن الكناية ، نجد أن أسامة يمتلك قدرة مميزة -بالنسبة لشعراء عصره- فى الاستعانة بالطاقة الخيالية التى تنقل إحساس القارئ إلى أجواء مغايرة وذلك لأن الكناية تلتقى مع الاستعارة فى تعميق الصورة وتوسيع آفاقها فى النص الإبداعى . من ذلك قوله فى قصيدة بعث بها إلى والده يصور فيها حقد الواشين فيقول[٨٤] :

تغلى على صدورهم من غيظهـــم وتكاد مـــن غيـــظ علـــي تحـــرق

ومما يقوى تأثير هذه الكناية ، تكرار لفظة (الغيظ) الذى يتشكل فى بنائه مع لفظة (تغلى) ذات العلاقة المباشرة بالكناية ، بل إن التشكيل الفنى للمفردات المتوائمة التى حشدها فى البيت ، جاء متناســـقاً مـــع المعنـــى المطلوب ، وهذه المفردات هى (تغلى ، صدورهـــم ، الغيـــظ مكـــررة ،

تحرق) فقد تم بناؤها على وفق هندسة متقنة للعبارة ، وهو ما يقوى من وظيفة هذه الكناية .

ومما يعكس جمال الصورة ، ما جاء فى قوله يتحدث عما لحق به من ظلم الزمان له فقال[٨٥] :

كأنا أخذنا من صروف زماننا أماناً ومن جور الحوادث موثقا

وهو ما يصور قلقه النفسى وضيق إحساسه بما تنوشه الحوادث وما يلحق به الدهر من عسف وظلم .

وطالما استخدم أسامة هذه الأنماط البديعية ليخضها إلى وظيفتها الفنية ، كتعميق الصورة وإظهار سماتها الجمالية والمعنوية التى تكشف عن الأبعاد الإنسانية التى تسعى إلى تجسيدها ولكنه أخفق فى تحقيق ذلك لأنه ظل مشدوداً إلى ثوابت عصره فى استخدام هذه الأنماط وهى أنها اقتصرت على العناية بالشكل أكثر من العناية بتوفير الأبعاد النفسية وغيرها من الأبعاد الفنية التى تحقق الموازنة بين القيم الإنسانية والقيم الجمالية التى نأى عصر اسامة عن تحقيقها إلى حد بعيد .

ومن جميل استعاراته قوله[٨٦] :

مذ بصرتنى تجاربى ونبهنى خبرى بدهرى فقدت العيشة الرغدا

كأنى كنت فى حلم فأيقظنى خوفى وآلى على جفنى لا رقدا

فيبدو من هذه الاستعارة أن هدفها هو تعميق صورة معاناته من الحياة ومن الناس ، فهى هنا ليست زينة شكلية وحسب ، بل هدفاً يسعى به الشاعر إلى الكشف عن معاناته من الحياة والناس.

كما أن بعض هذه الاستعارات كشفت عن طبيعة المجتمع الممــزق الذى كان يؤرق أسامة فى حله وترحاله وفى وطنه وغربتــه عــن هــذا الوطن ، ومن جميل صوره الشعرية قوله(٨٧) :

مع الثمانين عاث الضعف في جلدى وساء في ضعف رجلي واضطراب يدى
إذا كتبت فخطى جــد مضطــرب كخــط مرتعــش الكفــين مرتعــد
وإن مشيت وفى كفى العصا ثقلت رجلى كأنى أخوض الوحل فى الجلــد
فاعجب لضعف يدي من حملها قلما من بعد حطم القنا فــى لبــة الأســد

ففى هذه الصورة مجموعة من العناصر التى ينبغى توافرهــا فــى الصورة الناجحة كعنصر الحركة الذى يسيطر عليها سيطرة شــديدة فــى ألفاظ (اضطراب ، مضطرب ، مرتعش ، مرتعد ، مشيت ، أخوض)

ويلحظ أن هذه الألفاظ تلتقى فى مضمونها لتــؤدى وظيفتهــا فــى الهندسة اللفظية للعبارة الشعرية ، هذه العبارة التى بنيت بناء ينسجم مــع المعنى الذى يريده الشاعر ، وهو وصفه لحالتيه الحسية والمعنوية حيــن بلغ من العمر الثمانين ، وذها يؤكد قدرة أسامة على بناء الجملة الشــعرية بناء يحقق الهدف من غايته كما يؤكد كفاءته فى رسم صوره الشعرية .

ومن عناصر الصورة فى هذه الأبيات ، العنصر النفسى المتــأتى عن المعنى المنبثق من الألفاظ التى أشرنا إليها ، وهو عنصر مهــم فــى الصورة الأدبية ، غذ لا ينبغى فى الصورة سيطرة العنصر الحسى عليها.

ويلحظ فى هذه الصورة تسلسل الخواطر وتدفقها بما يبتعد بها عن الأسلوب التقليدى فى بناء القصيدة ، كالذى نجده لــدى معظــم شــعراء

عصره، ففى وصفه لحالته الجسدية والشعورية ، استطاع أسامة أن يسلسل أفكاره ويبنى جمله الشعرية على وفق ما يتطلبه وصف هذه الحالة ، حتى لنشعر أن وحدة الخواطر والأفكار يلد كل منها من رحم الآخر ، لتنتهى فى آخر الأمر صورة الشاعر وقد بلغ الثمانين من عمره ، وبما يجعلنا نحس إحساساً شديداً بجمال الوصف وتأثيره . ونحس أيضاً مع أسامة ، أنه يؤكد على أهمية الجانب المعنوى فى التصوير ، ولذلك بدأ صورته برسم هذا الجانب فى قوله (عاث الضعف فى جلدى) .

وقد تمكن أيضاً من أن يهيئ للصورة مفرداتها التى تحتاج إليها من مثل (رجلي ، يدى ، الكفين ، القلم ، القنا) فضلاً عن تكرار (اليد والرجل أكثر من مرة) وهو ما يقوى بناء المحكم للصورة . فضلاً عن إيقاع ينبجس من ذها البناء ومن قافية الدال المكسورة التى نستشعر معها بالراحة المتأنية عن هندسة العبارة ولو حاولنا أن نحلل كل صورة من صورها الجزئية ، لطالت بنا الوقفة ، ولكننا نشير إلى إحدى هذه الصور وهى قوله فى البيت الثالث (كأنى أخوض الوحل فى الجلد) بعد قوله (ثقلت رجلى) وهو تصوير لعجز رجليه عن المشى وشبه هذه الحالة بخوضه للوحل ، دليل الثقل والتباطؤ ، وربط ما بين (الخوض) وبين (الصبر) تحقيقاً للمواءمة بين الحسى والمعنوى فى الصورة ، وإحداثاً لتسلسل الخواطر فيها .

****

وهذه الطاقة المصاحبة للقدرة على توفير العديد من أنماط البديع وغير البديع هى التى جعلت أغلب دارسى شعره يكبرون ما حققه أسامة

فى هذه الميادين ، وهو ما دفع أحدهم إلى القول (إن ابن منقذ لا يميل إلى التكلف فى الصنعة وقد ترد فى أثناء أبياته أصباغ بديعية من جناس ومقابلة وكناية وتشبيه واستعارة ، ولكنه لا يتكلفها ، بل تراها ترد طواعية تؤدى دورها فى سياق الكلام)[٨٨].

ومما يلحظ على شعر أسامة ، استعانته بالتضمين (بشكل يسترعى الانتباه ، ولا سيما ما ورد منه فى القصيدتين الميمية والرائية ، ولا نعدو الحقيقة إن قلنا أن شخصيته جمعت بين محاسن الشاعرين المتنبى وأبى فراس ، وهما اللذان ضمن أسامة لأبياته من قصيدتيهما حتى اتهمه بعض سامعى شعره بالسرقة من غيره ، وليس فيما فعل أسامة سوى التضمين)[٨٩].

ومن ذلك قوله يخاطب معين الدين أنر[٩٠] :

وأنت أعدل من يشكى إليه ولى شكية أنت فيها (الخصم والحكم)
وما ظننتك تنسى حق معرفتى (أن المعارف فى أهل النهى ذمم)
لكن ثقاتك مازالوا بغشهم حتى (استوت عندك الأنوار والظلم)

ففى هذه الأبيات تضمين من قصيدة المتنبى : واحر قلباه ممن قلبه شبم ، كما يلحظ تأثر أسامة بالقرآن الكريم ، من ذلك قوله[٩١] :

إن فاجأتك الليالى بما يسوء فصبرا
فالدهر يرهق عسرا ويتبع العسر يسرا

****

وواضح أن الفكرة فى الشطر الثانى من البيت الثانى مأخوذة من قوله تعالى من سورة الشرح ﴿**فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا**﴾[٩٢] .

وحيث إن القرآن الكريم قد حث على الصبر ، فإن أسامة قد أخذ بهذا المعنى الإسلامى فحث عليه وعلى ما يؤول إليه ، من جزيل الثواب، فقال بهذا المعنى[٩٣] :

لو صبرنا على البلاء احتسابا لرجونا عنه جزيل الثواب

غير أن اصطبارنا صبر عجز واضطرار كذاك صبر الدواب

والبيت الأول مأخوذ من قوله تعالى ﴿**ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**﴾ ، ومن اقتباساته الجميلة من القرآن الكريم ، قوله يصف ما آلت إليه منازل أهله واقاربه بفعل الزلزال المدمر الذى أصابها :

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن ما خولوه كان فى الحلم

فالشطر الأول مقتبس من قوله تعالى (فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم)[٩٥].

****

بقى أن نشير إلى مسألة مهمة فى شعر أسامة بن منقذ ، الذى عده بعض الدارسين (من النوع الجزل الفخم ، لا تكاد تجد فيه من الهنات إلا ما يعد ويحصى، فهو فى عصره يوضع فى مقدمة الشعراء الذين جددوا شباب الشعر وكسوه حلة من الفخامة والقوة والجلال)[٩٦].

وهذه المسألة هى منهج الشاعر فى بناء قصائده ، فعلى الرغم من أن أسامة نهج بشعره المنهج التقليدى ، إذ كان (يبدأ قصائده بالغزل حين يفتخر أو يمدح ، أو يشكو ولكنه كان أحيانا أخرى يعدل عن هذه الطريقة التقليدية فيبدأ موضوعه من غير مقدمة غزلية)[٩٧].

ويلحظ فى ديوان أسامة ، القصائد الطويلة ، تنشر هنا وهناك ، وخاصة ما يتعلق منها بالشكوى ، مما يؤكد طول نفس الشاعر ، فى نظم شعره وسيطرته على تجربته .

ومهما يكون من أمر هذا الشاعر -ونقصد شعر الشكوى- فإنه ينساب (عند أسامة حاراً موؤثراً ، لأنه لم يكن شعراً تقليدياً يحتذى فيه الشاعر نماذج بعينها ، ولكنه كان تعبيراً مباشراً عن حياة قائله ، لأنه يرتبط بحياة أسامة ارتباطاً وثيقاً ويعبر تعبيراً صادقاً عما صادفه شاعرنا من تقلبات الزمن والناس وعن كل ما أصاب النفس والجسد من الألم فى رحلة عمره الطويل)[٩٨].

ويبقى أخيراً أن نقول إن شعر أسامة هو شعر التجربة الصادقة والعاطفة الدافئة والإحساس العميق بالمشاعر الإنسانية التى عبر عنها لأكثر من نصف قرن من الزمن .

وغذا كان صدق التجربة فى الشعر هو صدق الإحساس بما يكتب الشاعر ، فإن شعر أسامة يتلبس بحق هذه الحالة ، لأنه كان يحس كل تجاربه إحساساً شديداً لا ريب فيه ، إحساساً ينأى بنفسه عن الزيف ، وهو بعيد عن الزيف لأن تجربة الشكوى على الخصوص هى تجربة واقعية ، مارسها الشاعر وعاش كل حالاتها ومفرداتها الإنسانية ، وهى تتجذر فى

نفس صاحبها ، وتستقر فى مشاعره كما تتصل النبتة الحية بأعماق جذورها ، ونكاد نجزم بأن أسامة لم يشك فى تجاربه مرة دون أن تستقر هذه الشكوى فى وجدانه.

وإذا كان صدق التجربة يعنى إخلاص الشاعر لموضوعه ، فما أجدر أن تكون تجربة الشكوى لدى اسامة تجربة صادقة ، لأنها كانت تجسد رحلة حياته فى بلده وفى غربته التى عانى فيها المرارة والقسوة والظلم من الحياة ومن الناس ومن الأهل والأقارب ، بل من أقرب المقربين إليه .

ثبت هوامش البحث

١- ينظر : الاعتبار : أسامة بن منقذ ، ص ١٦-١٧ .

٢- ينظر : وفيات الأعيان : ابن خلكان ص ١-٦٣.

الخريدة : العماد الكاتي ٤٩٩/١.

الروضتين : أبو شامة ١١١/١-١١٣ .

مقدمة الاعتبار : أسامة بن منقذ ص ١.

٣- معجم البلدان : ياقوت الحموى ٣٨٣/٣ ، بيروت ١٩٥٥.

٤- خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الأصفهـــانى ٤٩٧/١ ، ت. شكرى فيصل ، دمشق ١٩٥٥ .

٥- المرجع السابق ٥٤٨/١.

٦- كتاب الاعتبار / ٥٧ / ت فيليب حتى / أمريكا ١٩٣٠.

٧- المنازل والديار : أسامة بن منقذ / ٤٤.

وانظر : تاريخ الأدب العربى : عمر فـــروخ /٣٩٤/٣ / بـــيروت ١٩٨٩ ، ط ٥.

٨- كتاب الاعتبار /٥٧.

٩- المرجع السابق /١٢٦.

١٠- المرجع السابق /١٢٦.

١١- انظر المنازل والديار/ ٤٤ وكتاب الاعتبار : ص٨٢.

١٢- ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق أحمد أحمد بدوى وحامد عبدالمجيد ، ص ١٨ ، بيروت ١٩٨٣ ، ط٢ ، ص ١٧٧.

١٣- مقدمة ديوان أسامة بن مننقذ ص ١٨.

١٤- تاريخ الأدب العربى / عمر فروخ ٣/٣٩٤.

١٥- انظر الحياة الأدبية / أحمد أحمد بدوى ص ١٨٠.

وانظر أسامة بن منقذ / حسن عباس ١/٤٢.

الأدب فى بلاد الشام / عمر موسى باشا / ٢٧٠-٢٧١ / دمشق ١٩٨٩.

١٦- أسامة بن منقذ / حياته وشعره : حسن عباس ١/١٧٢.

١٧- ديوان أسامة بن منقذ ص ١٧٧.

١٨- ظاهرة الحزن فى شعر نازك الملائكة - سالم الحمدانى - ٥٥-٥٦ - الوصل ١٩٨٠.

١٩- ديوان أسامة بن منقذ ص ١٧٧.

٢٠- أسامة بن منقذ / حسن عباس / ١٧٤.

٢١- الديوان : ١٩٥.

٢٢- الديوان : ١٨٢.

٢٣-الديوان : ٢٢-٢٣.

٢٤- المنازل والديار : أسـامة بـن منقـذ / ص٢٢٥ ، ت مصطفـى حجازى، القاهرة ١٩٦٨ .

٢٥- المرجع السابق ص ٧٨.

٢٦- المرجع السابق : ص ٢٧.

٢٧- ينظر : المنازل والديار / ت مصطفى حجازى .

٢٨- الديوان : ١٩

٢٩- الخريدة ١/٥٤٦.

٣٠- الديوان ص ٣٤٦

٣١- الديوان ص ١٠٩

٣٢- الديوان ٥٣ .

٣٣- الديوان ص ١١٥.

٣٤- الديوان ص ١١٤.

٣٥- الديوان ص٢٣٣ .

٣٦- الديوان ص ٢٤٠.

٣٧- الديوان ص ٢٩٨.

٣٨- الديوان ص ١٦٨.

٣٩- الديوان ص ١٨٨.

٤٠- الديوان ص٣٠٤.

٤١- تاريخ الأدب العربى - عصر الدول والإمارات - الشام - شـــوقى ضيف ص ٢٤٥ - مصر ١٩٩٠.

٤٢- الخريدة / العماد الأصفهانى - قسم الشام ٥٢٥/١.

٤٣- الديوان ص ٢١.

انظر الحياة الأدبية / أحمد أحمد بدوى ص ١٧٩.

٤٤- الديوان ص ٢١.

٤٥- الديوان ص ٣٤٦-٣٤٧.

٤٦- الحياة الأدبية / أحمد أحمد بدوى ص ١٧٩.

٤٧- الديوان ص ٢١٣.

٤٨- الديوان ص ٣٦٦.

٤٩- لباب الألباب / أسامة بن منقذ ص ٤٢٩.

٥٠- أسامة بن منقذ / حسن عباس ١٨٦/١.

٥١- المرجع السابق ١٨٨/١.

٥٢- كتاب الاعتبار / أسامة بن منقذ ص ١٦٣ ، والخريدة ٥٢٩/١.

٥٣- الخريدة - قسم الشام ٥٠٧/١.

٥٤- الديوان ص ٣١٩.

٥٥- أسامة بن منقذ / حسن عباس ١٩١/١.

٥٦- كتاب الاعتبار / أسامة بن منقذ ص ١٦١.

٥٧- الحياة الأدبية / أحمد بدوى ص ١٨١.

٥٨- الديوان ص ٢٣٠-٢٣١ .

٥٩- المنازل والديار ص ٤١٩-٤٢٠.

٦٠- الديوان ص ٣١١.

٦١- ينظر بشأن ذلك كتاب الاعتبار : أسامة بن منقذ ص ٢٢.

٦٢- الديوان ص ١٨.

٦٣- الديوان ص ١٨.

٦٤- كتاب الاعتبار ص ٨.

٦٥- كتاب الاعتبار ص ٣٤-٣٥.

وانظر لباب الألباب ص ٢٢.

٦٦- الديوان ص ١٨٨.

٦٧- الديوان ص ١٨٧.

٦٨- الديوان ص ١٨٧.

٦٩- الديوان ص ١٨٥.

٧٠- الديوان ص ١٠٦.

٧١- أسامة بن منقذ : حسن عباس ١/١٨٦.

٧٢- المرجع السابق ص ١٨٨.

٧٣- كتاب العصا ص ٤٥٤.

٧٤- الديوان ص ١٤١.

٧٥- ديوان الشوقيات : أحمد شوقى ٦٤/٢ . د.ت

٧٦- الديوان ص ١٦٥.

٧٧- الديوان ص١٧٣.

٧٨- الديوان ص١٧٥.

٧٩- الديوان ص ٣٥٢.

٨٠- الديوان ص ٢٣٣.

٨١- الديوان ص ١١٤.

٨٢- الديوان ص ١٦٤.

٨٣- الديوان ص ١٨١.

٨٤- الديوان ص ١٧٨.

٨٥- الديوان ص ١٨٠.

٨٦- الديوان ص ٤٣.

٨٧- الاعتبار ٥٢٩/١.

٨٨- الأدب فى العصر الفاطمى : محمد زغلول سلام ص ٤٤٨.

٨٩- الأدب فى بلاد الشام / عمر موسى باشا ص ٢٩٧.

٩٠- الديوان ص ١٦.

٩١- الديوان ص ١٦.

٩٢- سورة الشرح آيتا ٥ ، ٦.

٩٣- الديوان ص ٢٩٥.

٩٤- سورة النمل : آية ١٢٦.

٩٥- سورة الأحقاف : آية ٢٥.

٩٦- الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية - أحمد بدوى ص ١٨٨

٩٧- انظر مقدمة الديوان : ص ١٥.

٩٨- أسامة بن منقذ / حسن عباس ١/١٨٨.